رسالة طبيب يهودي عن معركة وادي المخازن (1578) وأهميتها في بناء المعرفة التاريخية بالمغرب السعدي: دراسة نقدية

أ.م. أحمد دائيم
جامعة الحسن الثاني / المغرب
daimahmed.hi@gmail.com

الملخص:

تعتبر الوثائق التاريخية بمثابة نوافذ نطل من خلالها على الماضي، ولاسيما في سياق تاريخ المغرب الذي شهد تحولات جذرية خلال العصر الحديث، لا سيما في الفترة السعدية (القرن 16–17). تُعد رسالة الطبيب اليهودي إلى أخيه في إسبانيا، التي تصف أحداث معركة وادي المخازن (معركة الملوك الثلاثة) عام 1578، مثالا بارزا على أهمية هذه الوثائق في فهم التفاعلات السياسية والعسكرية والاجتماعية. يهدف هذا المقال إلى تحليل هذه الوثيقة وتقييم دورها في توثيق تاريخ المغرب الحديث، مع التركيز على كيفية استخدامها لفك تشابكات الفترة السعدية وتأثيرها على المقاربات البحثية.

الكلمات المفتاحية: الوثيقة التاريخية، الطبيب اليهودي، معركة وادي المخازن، المغرب السعدي.

The Letter of a Jewish Physician on the Battle of Wadi al-Makhazin (1578) and Its Significance in Building Historical Knowledge of Saadian Maghreb : A Critical Study

Asst. Prof. Ahmed Daim
Hassan II University / Morocco

Abstract:

Historical documents serve as windows through which we view the past, especially in the context of Morocco's history, which witnessed radical transformations during the modern era, particularly during the Saadian period (16th-17th centuries). The letter from the Jewish physician to his brother in Spain, describing the events of the Battle of Wadi Al-Makhazin (Battle of the Three Kings) in 1578, stands as a prominent example of the importance of these documents in understanding political, military, and social interactions. This article aims to analyze this document and evaluate its role in documenting modern Moroccan history, focusing on how it can be used to unravel the complexities of the Saadian period and its impact on research approaches.

Keywords: Historical Document, Jewish Physician, Battle of Wadi Al-Makhazin, Saadian Morocco.

المقدمة:

تواجه دراسة الوثائق التاريخية تحديات متعددة، منها ما هو منهجي كصعوبة التحقق من صحة بعض الوثائق وتعدد اللغات والخطوط، ومنها ما هو مادي كتلف الوثائق وصعوبة الوصول إلى الأرشيفات وتشتتها بين دول مختلفة. غير أن هذه التحديات لم تمنع الوثائق من ممارسة دور محوري في تصحيح الروايات التاريخية وتطوير المنهجية التاريخية عن طريق تعزيز النقد التاريخي وتطوير أدوات البحث. ولذلك، يتطلب تحليل الوثائق التاريخية منهجية علمية تجمع بين النقد الخارجي والداخلي. يركز النقد الخارجي على التحقق من أصالة الوثيقة وتحديد تاريخ كتابتها وظروف إنتاجها، بينما يهتم النقد الداخلي بتحليل المحتوى وتقييم مصداقية المعلومات ومقارنتها مع مصادر أخرى. هذا المنهج النقدي ضروري لفهم التحولات التاريخية الكبرى لمختلف المجتمعات ومنها المجتمع المغربي خلال العصر الحديث، سواء على المستوى السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي.

تمثل الوثائق التاريخية حجر الأساس في بناء وفهم تاريخ المغرب الحديث، إذ تقدم شهادات حية ومعاصرة للأحداث التاريخية، مما يجعلها مصدرا أوليا لا غنى عنه في حقل الدراسات التاريخية. تكمن قيمة هذه الوثائق في قدرتها على توفير معلومات دقيقة ومباشرة عن الأحداث، وتقديم وجهات نظر متنوعة، فضلا عن دورها في توثيق تفاصيل الحياة اليومية والسياق الاجتماعي لمختلف الأحداث التاريخية. وتبرز رسالة الطبيب اليهودي للسلطان السعدي أبو مروان عبد الملك المعتصم بالله حول **معركة وادي المخازن** (4 غشت / آب 1578م) كمثال بارز على أهمية هذه الوثائق. فقد شكلت هذه المعركة، المعروفة أيضا باسم "**معركة الملوك الثلاثة**" أو "**معركة القصر الكبير**"، نقطة تحول محورية في تاريخ المغرب والبرتغال، حيث انتهت بهزيمة ساحقة للقوات البرتغالية ومقتل الملوك الثلاثة، عبد الملك المعتصم بالله، والملك البرتغالي دون سيباستيان (Dom Sebastião)، ومحمد المتوكل المخلوع.

تكتسب هذه الرسالة، المكتوبة بالإسبانية، أهمية خاصة كونها تقدم رواية مفصلة من منظور فريد لطبيب يهودي كان جزءا من البلاط المغربي. تغطي الوثيقة جوانب متعددة من الحدث التاريخي، بدءا من التفاصيل العسكرية الدقيقة حول تحركات الجيشين المغربي والبرتغالي واستخدام المدفعية، ومجريات المعركة، مرورا بالسياسة الداخلية والحالة الصحية للسلطان عبد الملك وظروف وفاته أثناء المعركة، وصولا إلى الجوانب الاجتماعية كمعاملة الأسرى الأوربيين وتوزيع الغنائم.

تتجاوز قيمة هذه الوثيقة الجانب العسكري لتكشف عن تحولات عميقة في المجتمع المغربي خلال تلك الفترة. فهي تسلط الضوء على التنوع الديني والثقافي في المغرب السعدي وطبيعة العلاقات بين السلطة والأقليات، إضافة إلى تفاصيل الحياة اليومية في البلاط المغربي من خلال وجود طبيب يهودي في بلاط السعديين. كما توضح التطور العسكري للدولة عبر استخدامها للتقنيات الحربية الحديثة. وتُبرز الوثيقة التحولات

الاقتصادية والاجتماعية التي أعقبت المعركة، مثل ارتفاع قيمة افتداء الأسرى الأوربيين خاصة البرتغاليين منهم وتأثير ذلك على التوزيع الطبقي في المجتمع.

رغم أهمية العديد من الوثائق التي أرخت للمعركة ومختلف الجوانب المحيطة بها خاصة من الجانب الأوربي، إلا أن استخدامها في البحث التاريخي يتطلب منهجية نقدية دقيقة تأخذ بعين الاعتبار تحيزاتها المحتملة وسياقها التاريخي، ما قد يؤثر على طريقة سردها للأحداث. على عكس ذلك، تمثل رسالة الطبيب اليهودي التي كتبها باعتباره شاهدا عيان في البلاط المغربي، مصدرا تاريخيا فريدا يقدم رؤية مباشرة وتفصيلية لأحداث معركة وادي المخازن. تكمن أهميتها في كونها تجمع بين دقة التفاصيل التاريخية وحيوية الشهادة المباشرة، مما يجعلها وثيقة أساسية لفهم هذه المرحلة المفصلية من تاريخ المغرب والعلاقات المغربية–البرتغالية.

تتجلى قيمة هذه الوثيقة في قدرتها على سد فجوات تاريخية مهمة وتقديم منظور مختلف عن الروايات الرسمية. فهي تكشف عن أدوار مهمشة في التاريخ المغربي، وتقدم معلومات ديموغرافية قيمة عن القتلى والأسرى، كما أن دراستها من خلال مقاربات متعددة – كمية ونوعية وبتحليل مفصل – يساعد في فهم أعمق للسياق التاريخي والاجتماعي للمغرب السعدي.

في النهاية، تمثل رسالة الطبيب اليهودي نموذجا على أهمية الوثائق التاريخية في بناء فهم شامل ومتعدد الأبعاد للتاريخ المغربي. فهي لا تقتصر على سرد الأحداث العسكرية والسياسية فحسب، بل تقدم نافذة على الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية في فترة محورية من تاريخ المغرب الحديث.

المحور الأول: معركة وادي المخازن وتأثيرها في موازين القوى الدولية

تُعد معركة وادي المخازن من الأحداث الحاسمة في التاريخ التي أعادت رسم الخريطة السياسية والعسكرية لمنطقة غرب المتوسط، وأثرت على العلاقات الدولية بين العالمين الإسلامي والمسيحي. تلك المعركة، التي دارت رحاها بين الجيش المغربي بقيادة السلطان عبد الملك المعتصم بالله وبين الجيش المدعم بالعديد من المرتزقة الأوربيين بقيادة الملك دون سيباستيان. كانت هذه المواجهة العسكرية نتاجا لصراعات متشابكة، تعود جذورها إلى انهيار الأندلس وتحول المغرب إلى ملاذ آمن للمسلمين واليهود الفارين من بطش محاكم التفتيش الإسبانية (جهاز ديني–قضائي أسّسه الملكان الكاثوليكيان إيزابيلا الأولى وفرناندو الثاني في إسبانيا سنة 1478م، لملاحقة المرتدين عن الكاثوليكية ومحاكمتهم، ولا سيما اليهود والمسلمين المتظاهرين باعتناق المسيحية، وظل قائما حتى سنة 1834م). ومنذ نهاية القرن الخامس عشر، أصبح المغرب مركزا للمقاومة ضد التوسع الإيبيري، حيث تعرضت سواحله لهجمات متكررة من البرتغاليين والإسبان، الذين كانوا يسعون إلى توسيع نفوذهم في المنطقة (زريوح، 2019، ص 257).

ومع وفاة السلطان عبد الله الغالب سنة 1574م، تفجرت أزمة عرش بين ابنه محمد المتوكل وعمه عبد الملك، الذي لجأ إلى الجزائر هربا من بطش أخيه. بمساعدة العثمانيين، الذين كانوا قد انتصروا مؤخرا في معركة حلق الوادي بتونس عام 1574م، تمكن عبد الملك من العودة إلى المغرب وخوض سلسلة من المعارك ضد ابن أخيه بلغت عشرين معركة في ظرف سنتين ونصف (الفشتالي، 1972، ص 54؛ لقبايبي، 2019، ص 53)، انتهت جميعها لصالحه خاصة في معركة الركن شرقي مدينة فاس عام 1576م بفضل الدعم العثماني (Autor anónimo, 1987, p. 44) وانحياز فرقة الأندلسيين في الجيش السعدي إليه بقيادة سعيد بن فرج الدغالي. في مواجهة تلك الهزائم، لجأ محمد المتوكل إلى طلب المساعدة من الإسبان أولا، ولكنهم رفضوا التدخل المباشر بسبب المخاطر الجمة التي كانت ستترتب على ذلك، فضلا عن التزامهم بمعاهدة سلام مع العثمانيين. ومع ذلك، لم يترددوا في تقديم دعم سري للحملة البرتغالية على المغرب (شحاتة، 1979، ص 211–212؛ نكروف، 1987، ص 121–122).

تحول محمد المتوكل بعد ذلك إلى البرتغاليين، حيث وجد في الملك الشاب دون سيباستيان، المتشدد دينيا والمتحمس لتحقيق حلم التوسع البرتغالي في المغرب، حليفا قويا. كان دون سيباستيان يطمح إلى تحقيق مكاسب اقتصادية وسياسية وعسكرية عن طريق تلك الحملة، رغم عرض عبد الملك بالتخلي عن بعض الأراضي المحيطة بالثغور المحتلة. إلا أن هذه المراسلات لم تمنع وقوع الصدام العسكري الذي تمثل في معركة وادي المخازن، حيث واجه الجيش المغربي، المدعوم بالمدفعية العثمانية، الجيش البرتغالي وحلفائه من المرتزقة الأوربيين، فضلا عن أنصار محمد المتوكل من المغاربة (الإفراني، 1998، ص ص 128–139؛ الناصري، 1997، ج5، ص 70؛ أميلي، 1997، ص 79–80).

انتهت المعركة بانتصار ساحق للجيش المغربي بقيادة عبد الملك وأخيه أحمد المنصور، مما أدى إلى مقتل الملك البرتغالي دون سيباستيان وحليفه محمد المتوكل وانهيار آمال البرتغال في التوسع. كانت لتلك الهزيمة تداعيات كبيرة، حيث أدت إلى أزمة خلافة في البرتغال (بيرتيي، 1991، ص 60–61) انتهت بضمها إلى إسبانيا في إطار الاتحاد الإيبيري. من ناحية أخرى، عززت المعركة مكانة المغرب كقوة إقليمية في غرب المتوسط، وحدت من التهديدات البرتغالية والإسبانية، وساهمت في تخفيف الضغط على الأراضي العثمانية في المشرق، خاصة في منطقة الخليج العربي (بنعبد الله، 1978، ص 37).

لم تكن معركة وادي المخازن مجرد صراع عسكري محلي، بل كانت حدثا دوليا شاركت فيه جنسيات متعددة، مما يعكس الطابع العالمي للصراع في ذلك الوقت. كما أنها أعادت رسم خريطة العلاقات الدولية في المنطقة، حيث برز المغرب كقوة لا يُستهان بها، في حين تراجعت مكانة البرتغال بشكل كبير. بالإضافة إلى ذلك، خلفت المعركة وثائق تاريخية قيمة، مثل الرسالة التفصيلية التي كتبها الطبيب اليهودي الخاص لعبد الملك

إلى أخيه في إسبانيا، والتي سلطت الضوء على الاستعدادات المغربية للمعركة، والوضع الصحي للسلطان، وأطوار المعركة، ودور أحمد المنصور في تحقيق النصر (De Castries, 1918, pp. 312–321).

بهذا، يمكن القول إن معركة وادي المخازن كانت نقطة تحول كبرى في تاريخ المغرب والعالم الإسلامي، حيث لم تقتصر آثارها على الحدود الجغرافية للمغرب، بل امتدت لتشمل العالمين الإسلامي والمسيحي، وأرست أسس حقبة جديدة من الصراع والتوازن بينهما. لقد كانت هذه المعركة مثالا على التضامن الإسلامي في مواجهة التهديدات الخارجية، كما أنها أكدت على أهمية الوحدة والاستعداد لتحقيق النصر في وجه التحديات الكبرى.

المحور الثاني: الاستعدادات لمعركة وادي المخازن: صراع المصالح والتحالفات في غرب المتوسط

انطلقت الاستعدادات الأولى لمعركة وادي المخازن منذ عام 1570م، عندما بدأ الملك البرتغالي دون سيباستيان التخطيط لحملة عسكرية على المغرب، والتي تجدد حماسه لها عام 1574م. كانت أهداف الحملة واضحة الاستيلاء على مدينة العرائش كهدف استراتيجي عسكري، والسيطرة على حركة الملاحة والتجارة في الساحل الأطلسي للمغرب، خاصة مع تنامي المنافسة التجارية الإنجليزية. إذ سعى دون سيباستيان إلى تضخيم الخطر العثماني على إسبانيا، محذرا خاله فيليب الثاني من عودة الأتراك إلى المغرب تحت غطاء دعم السلطان عبد الملك، مما قد يهدد المصالح الإيبيرية في المنطقة. وقد رأى دون سيباستيان أن احتلال العرائش سيمنع ذلك، معتقدا أن الانقسامات الداخلية في الدولة السعدية بين محمد المتوكل وعمه عبد الملك ستسهل تحقيق أهدافه (شحاتة، 1979، ص ص 201–206).

من جهته، حاول عبد الملك تجنب الحرب من خلال تقديم عروض توفيقية إلى دون سيباستيان، حيث عرض التنازل عن بعض الأراضي المحيطة بالثغور المحتلة، وحتى عرض تحكيم القضاة البرتغاليين في لشبونة لتسوية النزاع (نكروف، 1987، ص 165). إلا أن الملك البرتغالي، الذي كان مصمما على تحقيق حلمه التوسعي، رفض تلك العروض وواصل استعداداته للحرب. وقد حصل على دعم إسباني سري، رغم أن العاهل الإسباني فيليب الثاني كان مترددا في التدخل المباشر بسبب التزاماته مع العثمانيين وانشغاله بمشاكله في أوروبا، خاصة صراعه مع إنجلترا. ومع ذلك، قدمت إسبانيا دعما لوجستيا وعسكريا للحملة البرتغالية، بما في ذلك توفير المؤن والأسلحة (شحاتة، 1979، ص 211–212).

لم يقتصر استعداد دون سيباستيان على الدعم الإسباني، بل امتد إلى تجنيد مرتزقة من مختلف أنحاء أوروبا. فقد أرسل مبعوثيه إلى البلاد المنخفضة (هولندا) وألمانيا لتجنيد آلاف المقاتلين، كما حصل على قرض مالي من دوق توسكانيا وسمح له بتجنيد جنود من إيطاليا. بالإضافة إلى ذلك، استغل الملك البرتغالي وجود قوة

عسكرية كاثوليكية بقيادة الأرشيدوق الإنجليزي طوماس ستوكلي، والتي كانت متجهة لدعم الكاثوليك في إيرلندا، وأقنعها بالانضمام إلى حملته على المغرب (نكروف، 1987، ص 123–124؛ أميلي، 1997، ص ص 78–79). وهكذا، نجح دون سيباستيان في تشكيل جيش ضخم، قُدّر عدده بحوالي ثلاثين إلى ثمانين ألف مقاتل (الفاسي، 2008، ص 146؛ أعراب، 1978، ص 92)، مزودا بكميات كبيرة من المؤن والأسلحة، بما في ذلك سبعين قطعة مدفعية (De Castries, 1918, pp. 300–301).

في المقابل، كان السلطان عبد الملك يعي تماما خطورة الموقف، فبدأ في تعبئة قواته وحشد الدعم الداخلي والخارجي. وقد أطلق نداء عاما للجهاد، مما أدى إلى تجمع آلاف المتطوعين من مختلف أنحاء المغرب، مدفوعين بالحماسة الدينية والرغبة في الدفاع عن أرضهم. كما حرص عبد الملك على تعزيز علاقاته مع القوى الأوروبية، فتواصل مع ملكة إنجلترا إليزابيث الأولى، التي زودته بمدافع وبارود، كما أرسل رسائل إلى فيليب الثاني ملك إسبانيا وهنري الثالث ملك فرنسا، محاولا إقناعهم بعدم دعم الحملة البرتغالية (بنحادة، 1998، ص 103). وقد نجح في الحصول على دعم عسكري من العثمانيين، الذين أمدوه بقطع مدفعية وعدد من الجنود، مما عزز من قوة جيشه (أميلي، 1997، ص 79).

كان الجيش المغربي يتألف من حوالي ثلاثة وثلاثين ألف مقاتل – وهو عدد يقترب مما أورده صاحب كتاب "**تاريخ الدولة السعدية**"، إذ قدر عدد أفراد الجيش السعدي في معركة وادي المخازن بنحو 36 ألف مجاهد (مؤلف مجهول، 1994، ص 61) –، بما في ذلك خمسة وعشرين ألف فارس وعشرة آلاف من المشاة، بالإضافة إلى المتطوعين والمجاهدين. وقد حرص عبد الملك على رفع معنويات جنوده، مؤكدا على شرعية قضيتهم في مواجهة الغزو الأجنبي. كما حاول تفنيد مزاعم محمد المتوكل، الذي برر استنجاده بالبرتغاليين بحجة عدم وجود نصرة من المسلمين، حيث رد عليه علماء المغرب بأن استعانته بالكفار على المسلمين محظور شرعا، وأن النصر لن يكون إلا بيد الله والمسلمين (الناصري، 1997، ج5، ص ص 70–78).

مع اقتراب موعد المعركة، غادر عبد الملك مدينة مراكش على رأس جيشه في الثالث من يوليو / تموز 1578م، متجها شمالا للقاء أخيه أحمد المنصور، الذي كان يستعد لدعمه. وفي الوقت نفسه، كان الجيش البرتغالي يتحرك نحو المغرب، حيث نزل في طنجة وأصيلة، واستقبل محمد المتوكل الدون سيباستيان، واعدا إياه بالتنازل عن عدد من المرافئ المغربية مقابل دعمه في استعادة العرش. إلا أن عبد الملك، الذي كان على علم بكل تحركات العدو بفضل عملائه، أعد جيشه بشكل جيد، مدعوما بالإمدادات العثمانية والإنجليزية، ومستعدا لمواجهة الغزو البرتغالي بحزم (نكروف، 1987، ص ص 166–168).

وهكذا، كانت الاستعدادات المكثفة من كلا الطرفين تعكس أهمية المعركة القادمة، والتي ستحدد مصير المغرب وموازين القوى في المنطقة. فبينما كان دون سيباستيان يحلم بتحقيق مجد شخصي وتوسيع نفوذ

البرتغال، كان عبد الملك يسعى إلى حماية بلاده من الغزو الأجنبي وإعادة توحيدها تحت سلطته. وقد كانت معركة وادي المخازن على وشك أن تصبح نقطة تحول كبرى في تاريخ المغرب الحديث.

المحور الثالث: على أعتاب المعركة المصيرية: دهاء عبد الملك في مواجهة تهور دون سيباستيان

مع اقتراب المواجهة الحاسمة بين الجيشين البرتغالي والمغربي، بدأت الاستعدادات تتكشف بشكل واضح، حيث تحركت القوات البرتغالية بقيادة دون سيباستيان نحو المغرب، بينما كان عبد الملك يعمل على تعبئة قواته واستدراج العدو إلى الداخل. كانت الحملة البرتغالية قد نزلت في أصيلة يوم الثاني عشر من يوليو / تموز 1578م، بعد أن واجهت صعوبات لوجستية كبيرة، بما في ذلك نقص المياه وصعوبة التنقل عبر الطرق الوعرة. وقد اعتقد دون سيباستيان أن الجيش المغربي ضعيف، حيث توقع أن يجد مدينتي القصر الكبير والعرائش خاليتين من القوات، لكن هذه التقديرات كانت بعيدة عن الواقع (نكروف، 1987، ص 163؛ شحاتة، 1979، ص 213–214).

من جهته، كان عبد الملك على علم بكل تحركات العدو بفضل شبكة من العملاء والمعلومات التي وصلته. إذ بدأ في تعبئة قواته منذ أن علم بنوايا البرتغاليين، حيث غادر مراكش في الثالث من يوليو / تموز متجها شمالا نحو القصر الكبير. وفي طريقه، واجه عبد الملك تحديات صحية، حيث أصيب بمرض شديد جعله يتقيأ ويعاني من الحمى والعطش، مما أثار شكوكا حول احتمال تعرضه للتسميم (الفشتالي، 1972، ص 48؛ المكناسي، 1971، ص ص 224–225؛ الإفراني، 1998، ص 144؛ الناصري، 1997، ج5، ص ص 83–90).

ومع ذلك، أكمل مسيرته بثبات، مدفوعا بإصراره على مواجهة الغزو البرتغالي. وصل عبد الملك إلى سوق الخميس، على بعد ستة أميال جنوب القصر الكبير، حيث التقى بأخيه أحمد المنصور، الذي كان ينتظره بجيش قوامه اثنان وعشرون ألف فارس وخمسة آلاف وخمسمئة من حاملي البنادق، بالإضافة إلى آلاف المتطوعين الذين لبوا نداء الجهاد بحماسة. وقد أمر عبد الملك بإقامة معسكر في سوق الخميس لاستراحة الجنود، بينما كان الجيش البرتغالي يعاني من نقص في المؤن والمياه، مما أجبره على التوقف لمدة خمسة عشر يوما قرب أصيلة. (نكروف، 1987، ص 167).

على ضوء ذلك، عقد دون سيباستيان مجلسا حربيا لمناقشة مسار العمليات العسكرية، إذ طرح خيارين استراتيجيين إما التوجه نحو العرائش أو الزحف صوب القصر الكبير. وبالرغم من إجماع مستشاريه على أفضلية التوجه نحو العرائش للحفاظ على خط الإمداد البحري وضمان التواصل مع الأسطول، إلا أن طموحات دون سيباستيان الشخصية وسعيه وراء المجد العسكري دفعاه لاختيار مسار القصر الكبير. وقد

تعزز هذا القرار المصيري بعد تلقيه رسالة استفزازية من عبد الملك، الذي اتهمه فيها بالجبن إن لم يُقدم على مواجهة الجيش المغربي مباشرة. هذا الاستفزاز أثار حفيظة الملك البرتغالي ودفعه لاتخاذ قرار متهور بالتوغل في عمق الأراضي المغربية، مبتعدا عن الساحل ومصادر التموين والدعم من قبل الأسطول البرتغالي (نكروف، 1987، ص 172).

في الأول من غشت / آب، بدأ الجيش البرتغالي التحرك نحو القصر الكبير، حيث وصل إلى ساحة مفتوحة لسوق ريفي قديم يدعى "**تلة رايسانا**"، ثم تقدم نحو وادي المخازن (نكروف، 1987، ص ص 176–177). غير أن عبد الملك كان قد وضع خطة لاستدراج دون سيباستيان إلى الداخل، حيث كان يعلم أن فصل الجيش البرتغالي عن أسطوله البحري سيعرضه لخطر كبير. وقد نجحت هذه الخطة بفضل رسائل عبد الملك الاستفزازية (مؤلف مجهول، 1994، ص 59–60)، التي دفعت الملك البرتغالي إلى التحرك بعيدا عن الساحل دون تفكير في العواقب.

عندما عبر الجيش البرتغالي وادي المخازن، كانت المواجهة الحاسمة على وشك البدء. كان عبد الملك قد أعد جيشه بشكل جيد، مدعوما بالإمدادات العثمانية والإنجليزية، ومستفيدا من الروح العالية للمتطوعين الذين لبوا نداء الجهاد. وفي المقابل، كان الجيش البرتغالي يعاني من الإرهاق ونقص المؤن، مما جعله في وضع غير مؤهل لمواجهة جيش مغربي مدفوع بروح الدفاع عن الأرض والدين.

وهكذا، كانت تحركات الجيشين تعكس استراتيجيات مختلفة، دون سيباستيان، المندفع بحماس الشباب والرغبة في المجد، اختار التوجه إلى الداخل دون تفكير في المخاطر، بينما عبد الملك، ببراعة عسكرية وحنكة سياسية، استغل نقاط ضعف العدو لاستدراجه إلى ساحة معركة اختارها بعناية. كانت معركة وادي المخازن على وشك أن تبدأ، وهي المعركة التي ستحدد مصير المغرب وموازين القوى في غرب المتوسط.

المحور الرابع: معركة وادي المخازن: المواجهة الحاسمة وانتصار المغرب على البرتغال

في صبيحة الرابع من غشت / آب 1578م، تجمع الجيشان البرتغالي والمغربي على ضفاف وادي المخازن، حيث بدأت المعركة التي ستُعرف لاحقا بمعركة "**الملوك الثلاثة**". كان الجيش البرتغالي بقيادة دون سيباستيان قد نزل بالقرب من الوادي، وعبر إلى الضفة اليسرى حيث أقام معسكره. قبل بدء القتال، عقد الملك البرتغالي مجلسا حربيا مع قادته، حيث نصحه البعض بتجنب التهور وعدم التقدم إلى الأرض المكشوفة، خشية أن يتعرض الفرسان البرتغاليون للإبادة من قبل الفرسان المغاربة. كما اقترح محمد المتوكل تأجيل المعركة إلى اليوم التالي، معتقدا أن عبد الملك على وشك الموت بسبب مرضه الشديد. إلا أن دون سيباستيان، الذي كان متحمسا لتحقيق النصر، رفض هذه النصائح وأصر على خوض المعركة فورا (بيرتيي، 1991، ص 11).

بدأت المعركة مع بزوغ الفجر، حيث رفع دون سيباستيان سيفه وأعطى الإشارة للهجوم. كانت المقدمة البرتغالية تتألف من الجنود الأكثر تدريبا، مدعومة بفرق من المرتزقة الألمان والإسبان والإيطاليين. ومع ذلك، واجهت هذه القوات مقاومة شرسة من المدفعية المغربية، التي تمكنت من إحداث خسائر كبيرة في صفوف الجيش البرتغالي. ومع تقدم المعركة، تمكن البرتغاليون من إحداث فجوة في صفوف الفرسان المغاربة، مما أضعف الموقف الميداني للجيش المغربي. في هذه الأثناء، كان عبد الملك يعاني من تدهور صحته، حيث اشتد عليه المرض حتى توفي في خضم المعركة. ومع ذلك، تم إخفاء خبر وفاته عن الجنود للحفاظ على معنوياتهم، واستمرت الأوامر تصدر باسمه (De Castries, 1918, pp. 317–319).

من جهة أخرى، تمكن الجيش المغربي بقيادة أحمد المنصور من إعادة تنظيم صفوفه، حيث قام بتوجيه فرسان القبائل المجاهدة للالتفاف حول الجيش البرتغالي ومهاجمته من الخلف. وقد نجحت تلك الخطة في إحداث فوضى في صفوف البرتغاليين، الذين بدأوا يفقدون مواقعهم الواحدة تلو الأخرى. ومع تزايد الضغط، حاول دون سيباستيان جمع فرسانه لصد الهجوم، لكنه فشل في ذلك. وفي النهاية، وجد نفسه محاطا بعشرات الفرسان المغاربة، حيث قُتل بعد قتال شرس (نكروف، 1987، ص ص 191–192).

مع سقوط دون سيباستيان، تفككت صفوف الجيش البرتغالي تماما، حيث لاذ الجنود بالفرار أو الاستسلام. وقد زاد من حدة الكارثة تدمير الجسر الروماني الذي عبر منه البرتغاليون الوادي، مما قطع طريق انسحابهم وأدى إلى غرق العديد منهم في النهر. وبحلول مغيب الشمس، كانت المعركة قد انتهت بانتصار ساحق للجيش المغربي، حيث تم إبادة الجيش البرتغالي بالكامل تقريبا، وأُسر من بقي على قيد الحياة (الفشتالي، 1972، ص ص 39–48؛ الإفراني، 1998، ص 140؛ مؤلف مجهول، 1994، ص 60؛ الناصري، 1997، ج5، ص 81).

تعد معركة وادي المخازن واحدة من أكثر المعارك تأثيرا في تاريخ المغرب والبرتغال، حيث خلفت نتائج بعيدة المدى على الصعيدين الداخلي والخارجي لكلا البلدين. بالنسبة للبرتغال، كانت هذه المعركة كارثة حقيقية، حيث فقدت البلاد ملكها الشاب دون سيباستيان، الذي قُتل في ساحة القتال، بالإضافة إلى خسارة آلاف الجنود والأسرى. هذه الهزيمة لم تكن مجرد ضربة عسكرية، بل كانت بداية نهاية الإمبراطورية البرتغالية التي كانت تهيمن على البحار والمستعمرات شرقا وغربا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وفاة دون سيباستيان دون وريث أدخلت البرتغال في أزمة سياسية حادة، حيث تنافست عدة أطراف على العرش خاصة بعد وفاة عمه الكاردينال هنريكي الذي خلفه متخذا لقب "**هنري الأول**" (بيرتيي، 1991، ص ص 60–61)، مما مهد الطريق لفيليب الثاني ملك إسبانيا للسيطرة على البرتغال وتوحيدها مع إسبانيا تحت ما عُرف بالاتحاد الإيبيري (بيرتيي، 1991، ص ص 67–68؛ De Oliveira Marques, 1972, p. 322؛ Fausto, 1999, p. 40).

أما على الصعيد الداخلي للبرتغال، فقد أدت الهزيمة إلى انتشار ظاهرة "**السيباستيانية**"، حيث رفض الكثير من البرتغاليين تصديق وفاة دون سيباستيان، واعتقدوا أنه سيعود يوما ما لتحرير شعبه وقيادة البلاد (قدوري، 2000، ص 175). هذه الظاهرة غذتها أساطير وشائعات عن اختفاء الملك الشاب، مما أدى إلى ظهور عدة مدعين للعرش حاولوا استغلال هذه المعتقدات لتحقيق مكاسب شخصية. ومع مرور الوقت، تراجعت هذه الظاهرة، لكنها تركت أثرا عميقا في الثقافة البرتغالية (بيرتيي، 1991، ص ص 73–74؛ نكروف، 1987، ص ص 209–213).

من جهة أخرى، كانت نتائج المعركة بالنسبة للمغرب إيجابية إلى حد كبير. فقد حقق المغرب انتصارا ساحقا عزز من مكانته الدولية، وأظهر قوته العسكرية والسياسية. بعد المعركة، تم تنصيب أحمد المنصور سلطانا على المغرب، مما ساهم في استقرار البلاد سياسيا (الفشتالي، 1972، ص ص 26–40). كما أن الغنائم التي حصل عليها السعديون، بما في ذلك الأسلحة والأموال التي دُفعت لافتداء الأسرى، ساهمت في تعزيز الاقتصاد المغربي (مؤلف مجهول، 1994، ص 64؛ الناصري، 1997، ج5، ص 85). بالإضافة إلى ذلك، أدى هذا الانتصار إلى تعزيز الروح الوطنية لدى المغاربة، وزيادة ثقتهم في قدرتهم على مواجهة التهديدات الخارجية.

على الصعيد الخارجي، أصبح المغرب فاعلا رئيسيا في غرب المتوسط، حيث استقبل سفارات وهدايا من عدة دول، بما في ذلك البرتغال وإسبانيا وإنجلترا والدولة العثمانية (بيرتيي، 1991، ص 85–86). هذه العلاقات الجديدة ساعدت المغرب على تعزيز موقعه كقوة إقليمية، وأعطته هيبة دولية كبيرة. كما أن المعركة ساهمت في إضعاف النفوذ البرتغالي في المنطقة، مما سمح للمغرب بتوسيع نفوذه وتأمين حدوده.

باختصار، لم تكن معركة وادي المخازن مجرد حدث عسكري عابر، بل كانت نقطة تحول كبرى في تاريخ المغرب والبرتغال. بالنسبة للبرتغال، كانت بداية تراجع قوتها وفقدان استقلالها، بينما مثلت للمغرب فرصة لتعزيز وحدته واستقلاله، وتحقيق مكانة دولية مرموقة. هذه المعركة تظل شاهدة على كيف يمكن لحدث واحد أن يغير مسار تاريخ أمتين.

المحور الخامس: رسالة الطبيب اليهودي: نافذة على معركة وادي المخازن والتحولات التاريخية في المغرب والبرتغال

تعد رسالة الطبيب اليهودي وثيقة استثنائية وفريدة في سجل التاريخ المغربي الحديث، لا لكونها شهادة عيان من داخل معسكر السلطان عبد الملك السعدي فحسب، بل لما تكشفه من طبقات متعددة للحدث التاريخي والسياق الاجتماعي. فمنذ الوهلة الأولى، تبرز قيمتها كمصدر أولي نادر يوثق تفاصيل معركة وادي المخازن،

التي شكلت منعطفا حاسما في موازين القوى الإقليمية غربي المتوسط، حيث تجسد الرسالة تلاقي المصائر بين مملكتين عبر مقتل ملوكها في ساحة واحدة.

تستمد الرسالة مصداقيتها من حفظها في الأرشيف البريطاني ضمن وثائق الدولة، حيث تم تصنيفها كنسخة معاصرة من الأصل. ورغم التحديات اللغوية المتمثلة في استخدام الإسبانية القديمة وتعدد التهجئات، إلا أن محتواها يتسق مع المصادر التاريخية الأخرى مع تميزها بتفاصيل فريدة . وقد أعيد نشر نسخة منها مع هوامش وملاحظات مفصلة باللغة الفرنسية في باريس عام 1918م، ضمن "**المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب**"، المجموعة الأولى الخاصة بإنجلترا والمتعلقة بالدولة السعدية، التي جمعها الكونت الفرنسي هنري دوكاستري.

تتميز لغة الرسالة بأسلوب متميز يعكس التنوع اللغوي والثقافي الذي كان سائدا في المغرب خلال العصر السعدي. فهي تجمع بين العربية والإسبانية والبرتغالية، مستخدمة مصطلحات عسكرية وإدارية خاصة بتلك الفترة، مما يعكس الطبيعة المتعددة الثقافات للمجتمع المغربي آنذاك. وقد كتبت الرسالة بلغة إسبانية قديمة، ممزوجة بمفردات تحمل أسماء عربية وبرتغالية، وهو ما يشير إلى أن كاتبها، الطبيب اليهودي، ينتمي إلى الموريسكيين الذين هاجروا إلى المغرب هربا من المعاملة القاسية التي تعرضوا لها في إسبانيا بعد سقوط مملكة غرناطة عام 1492م، ولا سيما من قبل محاكم التفتيش. إلى جانب هذا التنوع اللغوي، يكشف أسلوب الرسالة السردي والتفصيلي عن رؤية تحليلية مميزة، تجمع بين دقة عين الطبيب ووعي المؤرخ. فمن خلال وصف الأحداث بدقة، يبرز الكاتب قدرته على الربط بين التفاصيل الصغيرة والصور الكبيرة، مما يجعل الرسالة ليست مجرد سرد تاريخي، بل وثيقة تحليلية تقدم نظرة عميقة على الأوضاع السياسية والعسكرية والاجتماعية في تلك الفترة. هذا المزيج بين الدقة الطبية والعمق التاريخي يجعل الرسالة مصدرا قيما لفهم طبيعة المجتمع المغربي وتفاعلاته الثقافية في القرن السادس عشر.

تبدأ الرسالة بوصف تفصيلي لتحركات الجيش المغربي في مسيره نحو المعركة المصيرية، متتبعة خط سيره بدءا من وادي القاهرة مرورا بشيشاوة ومراكش وماور في تامسنا (De Castries, 1918, p. 313, Note 3؛ De Castries, 1905, pp. 336, 392, 468, Note 3, 536, Note 1)، ثم سلا والمعمورة، وصولا إلى مدينة القصر الكبير. يرسم الكاتب صورة حية للظروف التي واجهها الجيش في مسيره، مقدما تفاصيل دقيقة عن الأحوال المناخية والجغرافية التي أثرت في مجريات الأحداث، كما يتطرق إلى الاستراتيجيات العسكرية المتقدمة التي اتبعها الجيش السعدي، مثل استخدام المدفعية وتنظيم الوحدات القتالية على شكل هلال.

وفي خضم هذا السرد، يكشف الطبيب عن تدهور الحالة الصحية للسلطان عبد الملك بعد تعرضه للتسمم، واصفا بدقة طبية كيف بدأت متاعبه الصحية عقب تناوله للسمك والشمام وشربه كميات كبيرة من الماء، وكيف تطورت حالته حتى وفاته في خضم المعركة. كما يسلط الضوء على محاولات السلطان اليائسة لإخفاء أعراض التسمم بينما كان يقود جيشه نحو موقع المعركة، محاطا بطبقات من السرية (De Castries, 1918, pp. 313–315). هذه المشاهد لا تقتصر على مجرد سرد للأحداث، بل تقدم نافذة على ثقافة الحكم السعدي، حيث تتحول الجسدية السياسية للسلطان إلى رمز للاستقرار، مما يفسر الإجراءات المحكمة التي اتخذت لإخفاء وفاته حتى إعلان النصر، كآلية لحفظ التماسك المعنوي للجيش.

يبرز في الرسالة بإسهاب الجانب الإنساني للسلطان عبد الملك، الذي يظهر كشخصية استثنائية جمعت بين الشجاعة الفائقة والإصرار العظيم. فبالرغم من مرضه الشديد وتدهور حالته الصحية جراء التسمم، أصر على قيادة جيشه بنفسه، متحديا آلامه الجسدية وضعفه (De Castries, 1918, pp. 316–317)، مما يعكس إرادة قوية وتفانيا نادرا في أداء واجباته القيادية. هذا الموقف لا يبرز فقط شجاعته الشخصية، بل يكشف أيضا عن عمق التزامه تجاه جنوده وقضيته، حيث فضل تحمل المعاناة على التخلي عن مسؤولياته في لحظة حاسمة من تاريخ مملكته.

كما تكشف الرسالة عن براعة وحنكة سياسية وعسكرية فذة في إدارة الأزمة التي أعقبت وفاة عبد الملك. فبعد وفاته أثناء المعركة، تم التعتيم على الخبر بعناية فائقة من قبل حاجبه رضوان العلج والطبيب اليهودي وابن القائد الأندلسي محمد زرقون ومسلين (Muselin) (De Castries, 1918, p. 318)، وذلك بهدف الحفاظ على معنويات الجيش ومنع أي تأثير سلبي على سير المعركة. وفي إطار قراءة تحليلية لهذا الحدث، يمكن القول إن هذا الإجراء والقرار الاستراتيجي لا يبدو مجرد تدبير احترازي ظرفي، بل كان خطوة مدروسة بعمق تعكس فهما دقيقا لطبيعة الحروب ومدى تأثير العامل النفسي على نتائجها. فإخفاء وفاة السلطان حتى إعلان النصر كان بمثابة آلية حاسمة لضمان استمرار التماسك المعنوي للجنود، الذين كانوا يعتمدون على وجود قائدهم كرمز للوحدة والقوة. هذه الحنكة السياسية والعسكرية لم تكن فقط سببا في تحقيق النصر، بل كانت أيضا تعبيرا عن طبيعة النظام السعدي التي كان يعلي من شأن الاستقرار والتماسك الداخلي، حتى في أحلك الظروف. فالجسد السياسي للسلطان، الذي تحول إلى رمز للاستقرار، كان يعتبر عنصرا أساسيا في الحفاظ على تماسك الدولة، مما يفسر الإجراءات الصارمة التي اتُخذت لإخفاء وفاته حتى اللحظة المناسبة.

تندرج معركة وادي المخازن في سياق الصراع على السلطة في المغرب، حيث وجد السلطان عبد الملك نفسه في مواجهة تحالف قوي ضم الملك البرتغالي دون سيباستيان ومحمد المتوكل، المطالب بعرش المغرب. وقد انتهت هذه المعركة بانتصار مغربي ساحق ومقتل الملوك الثلاثة (De Castries, 1918, pp. 317–

319). هذا الحدث لم يكن مجرد صدام عسكري، بل نقطة تحول تاريخية أثرت بعمق على مسار كل من المغرب والبرتغال، حيث أدى إلى تغييرات سياسية واجتماعية كبيرة.

تقدم الوثيقة وصفا تفصيليا ودقيقا لمجريات المعركة، بدءا من ترتيب القوات وتوزيعها، مرورا باستخدام المدفعية، ووصولا إلى دور مختلف الوحدات العسكرية. كما تسلط الضوء على التكتيكات القتالية التي اتبعها الطرفان، سواء في الهجوم أو الدفاع، وتقدم إحصاءات عن أعداد القتلى والأسرى. بالإضافة إلى الجوانب العسكرية، تبرز الوثيقة ملاحظات مهمة عن التركيبة الاجتماعية للجيش المغربي، حيث تكشف عن الدور البارز الذي لعبته القبائل المغربية في المعركة مثل قبيلتي سفيان ومالك العربيتين، وعرب الجبل (جبالة)، وعرب الخلط (De Castries, 1918, pp. 315–316)، وجزولة، وزواوة البربريتين، وشراگة المنتمية إلى قبائل شرق المغرب. كما ضم الجيش في صفوفه عناصر متنوعة، مثل الأتراك والأندلسيين والعلوج، إلى جانب بعض المرتزقة الأوربيين ممن تولوا مسؤولية المدفعية بشكل رئيسي، وأظهروا مهاراتهم في استخدام مختلف أنواع الأسلحة النارية (De Castries, 1918, p. 318؛ Autor anónimo, 1978, p. 103؛ De Castries, 1905, p. 604؛ دي هنين، 1997، ص ص 42، 44، 51، 57، 59، 64). فالجيش لم يكن مجرد كيان عسكري موحد، بل كان تعبيرا عن نسيج اجتماعي معقد، حيث ساهمت كل قبيلة ووحدة عسكرية بدورها في تحقيق النصر، مما يعكس درجة عالية من التماسك الداخلي والتعاون بين مكونات المجتمع المغربي في مواجهة التحديات الخارجية.

هذا المزج بين التفاصيل العسكرية الدقيقة والتحليل الاجتماعي العميق يجعل الوثيقة مصدرا غنيا لفهم ليس فقط مجريات المعركة، بل أيضا السياق الأوسع الذي حدثت فيه. فمن خلال وصفها لاستراتيجيات القتال وتوزيع القوات، تقدم الوثيقة نظرة على أساليب الحرب والأسلحة المستخدمة آنذاك. وفي الوقت نفسه، تكشف عن الديناميات الاجتماعية والسياسية التي شكلت أساس القوة العسكرية المغربية، مما يجعلها مرجعا قيمًا لفهم التاريخ العسكري والاجتماعي للمغرب في القرن السادس عشر.

لا تقتصر أهمية الوثيقة على الجانب العسكري فحسب، بل تمتد لتكشف عن نسيج المجتمع المغربي في القرن السادس عشر بكل تعقيداته وتنوعه. فوجود طبيب يهودي في البلاط السلطاني يعكس التنوع الديني والثقافي الذي كان سائدا في المغرب آنذاك، ويُبرز مكانة اليهود كفئة مؤثرة في الإدارة والحياة العامة، وطبيعة العلاقات بين مختلف المكونات الاجتماعية. هذا الواقع يلقي الضوء على الديناميات الاجتماعية التي سمحت بتعايش الأديان في إطار النظام السياسي السعدي، مما يشير إلى درجة من التسامح والاندماج الاجتماعي في ظل حكم الدولة السعدية. علاوة على ذلك، تقدم الوثيقة تفاصيل قيّمة عن اقتصاد الأَسر والرق، مما يعكس التحولات التي شهدتها البنى الاقتصادية التقليدية تحت وطأة الحروب المتكررة. تكشف هذه التفاصيل

كيف أثرت الظروف العسكرية والسياسية على الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وكيف تمت إدارة الموارد البشرية والمادية في ظل تلك التحديات (De Castries, 1918, p. 319).

تبرز دراسة المصادر التاريخية المغربية والأوروبية المتعلقة بمعركة وادي المخازن عن تباينات جوهرية في توثيق أحداثها وتداعياتها، وذلك باختلاف منطلقاتها ومرجعياتها. فالمصادر المغربية، وعلى رأسها رسالة الطبيب اليهودي التي تعد وثيقة محلية مهمة، قدمت إحصائيات تقديرية دقيقة بناء على المشاهدات المباشرة، حيث أشارت إلى سقوط حوالي خمسة عشر ألف قتيل. وقد دعمت روايتها بتفاصيل حية عن تحول مدينة فاس إلى سوق واسع للأسرى والغنائم (De Castries, 1918, p. 319)، مما يعكس حجم الكارثة الحقيقية التي حلت بالحملة البرتغالية.

استنادا إلى مجموعة غنية من المصادر المغربية، يمكننا أن نرسم صورة دقيقة وشاملة لمعركة وادي المخازن. تتعدد الروايات المغربية في تقدير أعداد الجيش البرتغالي والخسائر التي مني بها، مما يعكس تنوع المنظورات وأحيانا المبالغة الأدبية. يذكر عبد العزيز الفشتالي أن "**ثمانين ألفا من المشركين**" لقوا مصرعهم أو أسروا (الفشتالي، 1972، ص 39)، وأن الأسرى بلغوا "**مئين من ألوف أمم النصرانية**" (الفشتالي، 1972، ص 48). في المقابل، يذهب أحمد بن القاضي المكناسي إلى الرفع بشكل كبير من تعداد الجيش البرتغالي، حيث قدره بـ "**مائة ألف وخمسة وعشرين ألفا**"، مشيرا إلى أن خمسة وعشرين ألفا بقوا في السفن، بينما أسر أو قتل الباقون (المكناسي، 1986، ج1، ص 245). يتبنى الإفراني في مؤلفه "**نزهة الحادي**" هذه الأرقام نفسها (الإفراني، 1998، ص 139–140)، مستندا إلى مصادر سابقة مثل "**المنتقى المقصور**" و"**درة الحجال**" لابن القاضي (المكناسي، 1971، ج2، ص 224). لكن المؤرخ المجهول في كتابه "**تاريخ الدولة السعدية**" يقدم رؤية أكثر واقعية، حيث يحدد عدد الجيش البرتغالي بـ "**ستين ألف جندي**"، مدعمين بمائتي مدفع والآلاف من العربات، بالإضافة إلى ثلاثمائة مقاتل مغربي من أنصار محمد المتوكل، مع خسائر كبيرة عقب المعركة دون تحديد دقيق (مؤلف مجهول، 1994، ص ص 58–60). أما أحمد الناصري في كتابه "**الاستقصا**"، فينقل عن المؤرخ الإسباني مانويل بابلو كاستيلانو (Manuel Pablo Castellanos) أن الجيش ضم حوالي اثنان وأربعون ألف مقاتل (اثنا عشر ألف برتغالي، عشرون ألف إسباني، ستة آلاف إيطالي وألماني، وأربعة آلاف من جنود البابا)، مزودين بألف وخمسمائة فرس واثني عشر مدفعا وألف مركب، مؤكدا أن معظمهم هلكوا أو أسروا، مضيفا أن هذه الهزيمة تركت أثرا مأساويا عميقا في الذاكرة البرتغالية، خاصة مع انهيار دولتهم نتيجة فراغ عرش الحكم، وسقوطها تحت السيطرة الإسبانية. في المقابل، يذكر أن تعداد الجيش المغربي قد تجاوز أربعين ألفا وتضمن أربعة وثلاثين مدفعا (الناصري، 1997، ج5، ص ص 85–89).

يتفق هذا التنوع في التقديرات على نقطة مركزية وهي أن الجيش البرتغالي تكبد هزيمة مدمرة، حيث شكل القتلى والأسرى الغالبية العظمى من قواته. وتبرز أهمية الأسرى النبلاء في الروايات، إذ يشير المؤرخ المجهول إلى أن أحمد المنصور جمع ثروات طائلة من فدية "**قُواد النصارى وأكابرهم**" (مؤلف مجهول، 1994، ص 64؛ الناصري، 1997، ج5، ص 85)، مما يعكس العدد الكبير لهؤلاء الأسرى ذوي القيمة السياسية والاقتصادية. على الجانب الآخر، تبدو المعلومات عن الجيش المغربي أقل تفصيلا. يذكر المؤرخ المجهول أن قواته بلغت "**ستة وثلاثين ألفا**" (مؤلف مجهول، 1994، ص 61)، بينما يرى الناصري أنها تجاوزت أربعين ألف (الناصري، 1997، ج5، ص 89). ورغم غياب أرقام دقيقة عن الخسائر المغربية، تشير المصادر ضمنيا إلى أنها كانت محدودة مقارنة بالبرتغاليين، وهو ما يتماشى مع الانتصار الساحق الذي حققوه.

تركت معركة وادي المخازن بصمة عميقة على الطرفين، لتصبح نقطة تحول في تاريخهما. بالنسبة للمغرب، جاء النصر ليعزز شرعية الدولة السعدية وحكم أحمد المنصور، الذي اعتبر النصر دليلا إلهيا على حقه في الحكم (الفشتالي، 1972، ص ص 26–40). لم يقتصر الأثر على السياسة، بل امتد إلى الروح المعنوية، إذ شبهت المعركة بغزوة بدر في رواية ابن القاضي (المكناسي، 1986، ج1، ص 244)، مما وحد الصف المغربي. اقتصاديا، أتت الغنائم وفدية الأسرى بثروات طائلة، عززت خزينة الدولة (مؤلف مجهول، 1994، ص 64؛ الناصري، 1997، ج5، ص 85). وهكذا، تحولت المعركة إلى رمز للقوة والاستقلال، رسخت مكانة المغرب كقوة صاعدة في غرب المتوسط.

في المقابل، كانت الهزيمة كارثة حقيقية للبرتغال. فقدان الملك دون سبستيان وعدد كبير من النبلاء، كما يروي الناصري، أغرق البلاد في أزمة سياسية خطيرة، مهدت الطريق لسيطرة إسبانيا على العرش البرتغالي بعد سنوات قليلة. لم تكن الخسائر مادية فقط، بل تركت ندوبا نفسية عميقة في الذاكرة البرتغالية، عكستها أدبياتهم (الناصري، 1997، ج5، ص 85). هكذا، أنهت المعركة طموحات البرتغال التوسعية في شمال إفريقيا، لتعيد تشكيل التوازنات السياسية في المنطقة لعقود طويلة.

من الواضح أن معركة وادي المخازن خلفت فراغا ديموغرافيا كبيرا في البرتغال، مما دفع رجال الدين إلى حثّ البرتغاليين على الإكثار من الإنجاب لتعويض الخسائر البشرية الفادحة التي مُنيت بها البلاد جراء تلك المعركة. وقد أشار الإفراني إلى أن هذه الدعوة وصلت إلى حد التشجيع على ممارسات غير أخلاقية، بغية زيادة المواليد وسدّ النقص السكاني الذي نتج عن تلك المعركة، وهو ما أورده بقوله: "**ذكر بعضهم أن النصارى لما وقعت عليهم الكائنة المذكورة وفنى من فنى منهم ورأى أساقفتهم قلة عددهم وخلاء بلادهم لكثرة من مات منهم، أباحوا للعامة فاحشة الزنى ليكثر التناسل ويخلف ما هلك منهم، ورأوا دلك من نصرة دينهم، وتقويم أود ملتهم أخزاهم الله**" (الإفراني، 1998، ص 143).

تُظهر المصادر البرتغالية محاولات متعددة للتقليل من فداحة الخسائر البشرية التي تكبدتها الحملة البرتغالية على المغرب، وذلك بهدف التخفيف من وطأة الهزيمة ووقعها على الذاكرة الوطنية البرتغالية. هذه الجهود تعكس الرغبة في تخفيف الصدمة الناتجة عن الكارثة العسكرية والسياسية التي عصفت بالبرتغال بعد المعركة، والتي كانت مقدمة لفقدان البلاد استقلالها لصالح إسبانيا لاحقا. ومع ذلك، تظل الأرقام التقريبية للخسائر، كما وردت في مصادر أخرى، شاهدة على حجم الهزيمة الكارثية التي وقعت. من بين هذه المصادر كتاب "**حملة الملك دون سيباستيان على إفريقيا**" (Jornada del-rei Dom Sebastião à África)، الذي يعد مصدرا تاريخيا قيما في توثيق معركة وادي المخازن، باعتباره من المصادر المعاصرة لأحداثها، إذ قدم مؤلفه المجهول تحليلا نقديا عميقا لأسباب هزيمة الحملة البرتغالية. وقد عزا هذه الهزيمة إلى عوامل جوهرية، تمثلت في استبداد الملك سيباستيان برأيه، وغياب البنية السياسية والإدارية المؤهلة لإدارة حملة عسكرية بهذا الحجم، فضلا عن عزوف شرائح واسعة من المجتمع البرتغالي عن المشاركة فيها. مضيفا أن انتشار الفساد والرذائل في المجتمع البرتغالي كان بمثابة عقاب إلهي مهد للهزيمة المحتومة (بوشرب، 1983، ص 120-121؛ زريوح، 2020، ص 157).

في المقابل، يقدم المؤلف صورة مغايرة للجانب المغربي، مؤكدا أن المغاربة، بمجرد علمهم باجتياز البرتغاليين، توحدوا حول السلطان عبد الملك المعتصم، وتدفقوا من مختلف المناطق نحو منطقة القصر الكبير. وقد أدرك المغاربة أن الهدف من الحملة البرتغالية هو الاستيلاء على أراضيهم وأسر نسائهم وأطفالهم، مما أثار حماسهم للدفاع عن وطنهم. ويسلط المؤلف الضوء على الاستعدادات العسكرية الدقيقة التي قام بها السلطان عبد الملك المعتصم، والتي شملت تعبئة القوات وتنظيمها بفعالية، بالإضافة إلى الإجراءات الاستباقية التي اتخذها لإفشال الحملة البرتغالية. كما يشير المؤلف إلى التفوق العسكري والسياسي للسلطان عبد الملك المعتصم على خصمه المتوكل، بفضل ذكائه وخبرته العسكرية، فضلا عن ولاء المغاربة له ورفضهم لابن أخيه. ويتناول أيضا ظروف بيعة أحمد المنصور، مشيرا إلى التفوق العددي للمغاربة، ورغبتهم القوية في الاستشهاد دفاعا عن أرضهم. ويذكر أن الجيش المغربي تألف من ستة وستين ألف فارس وأربعة وأربعين ألفا من المشاة، بالإضافة إلى اثنتين وعشرين قطعة مدفعية، مما يعكس قوته وتنظيمه (بوشرب، 1983، ص ص 122-124؛ زريوح، 2020، ص 157).

يصف المؤلف تفاصيل المعركة بدقة، مع التركيز على الجوانب المادية والنفسية التي رافقتها. ويصور هول المواجهة بقوله: "**إن مشاهدة عظمة الجيشين الإسلامي والمسيحي، وعدد الرماح والخيام، ولمعان السلاح، والضجيج، والطلقات، وأصوات الجنود، تجعل القلوب ترتجف وألوان الوجوه تتغير، وتجعل كل واحد يخاف على مصيره حتى ولو كان فريقه هو الأكثر أمانا**" (بوشرب، 1983، ص 125؛ زريوح، 2020، ص 157).

ويخلص المؤلف إلى أن التفوق العددي والاستعداد النفسي والعسكري للمغاربة كانا العاملين الرئيسيين في إجبار البرتغاليين على التفكير في الانسحاب، مما أدى إلى هزيمتهم النهائية. ومع ذلك، يحاول المؤلف التقليل من دور العامل المغربي في الهزيمة بالادعاء أن الخطة البرتغالية كانت تهدف فقط إلى السيطرة على ميناء العرائش. ويذكر أن عدد الناجين من الجيش البرتغالي لم يتجاوز أربعين فردا، بينما قُتل أو أُسر أو غرق الباقون، مما يعكس حجم الكارثة التي حلت بالحملة البرتغالية (بوشرب، 1983، ص 127–128؛ زريوح، 2020، ص 158).

في هذا السياق، يقدم المؤرخ البرتغالي جيرونيمو دي ميندونسا (Jeronymo de Mendonça) في كتابه "**حملة إفريقيا**" (Jornada de África) تحليلا مفصلا لتأثير الحملات العسكرية البرتغالية في المغرب على مصير المملكة البرتغالية. تعد هذه الحملات، ولا سيما تلك المتعلقة بمعركة وادي المخازن، نقطة تحول تاريخية حاسمة أدت إلى تراجع الطموحات التوسعية للبرتغال في المنطقة. ويشير ميندونسا إلى أن فشل هذه الحملات في تحقيق أهدافها الاستراتيجية أضعف المملكة على الصعيدين الاقتصادي والسياسي، مما جعلها أكثر عرضة للأزمات الداخلية والخارجية، ملقيا باللوم على القرارات العسكرية المتسرعة للملك دون سيباستيان، والتي افتقرت إلى التخطيط الاستراتيجي المدروس، في تفاقم الأوضاع الهشة لمملكته. كما يوضح أن استمرار المواجهات مع قوى شمال إفريقيا، بالإضافة إلى الضغوط الخارجية وسلسلة الهزائم العسكرية، أدى إلى زعزعة استقرار البرتغال. هذا الضعف المتزايد مهد الطريق للتدخلات الخارجية، مما أسهم في نهاية المطاف في سيطرة إسبانيا على البرتغال (De Mendonça, 1904, pp. 22, 24, 55, 59, 86).

هذه الخسائر الفادحة تؤكدها شهادات معاصرة أخرى، حيث قدر البرتغالي لويس نييتو (Fray Luis Nieto) عدد القتلى البرتغاليين باثني عشر ألفا على الأقل (De Castries, 1905, p. 497). كما تحدث الجندي البرتغالي لويس دي أوشيدا (Luis de Oxeda)، الذي كان شاهد عيان على المعركة، عن سقوط عشرة آلاف قتيل مسيحي (De Castries, 1905, p. 617). من جهة أخرى أشار أحد النبلاء البرتغاليين وهو أنطونيو دي صالدانيا (Antonio de Saldanha) (دي صالدانيا، 2011، ص ص 10–11) إلى أن المعركة تسببت في خسائر فادحة للبرتغاليين، سواء في الأرواح أو في الأسرى، كما أدت إلى إبادة المملكة البرتغالية وتقهقر إمبراطوريتها، مما مهد الطريق لخضوعها للسيطرة الإسبانية (دي صالدانيا، 2011، ص ص 34–35).

وهكذا، تُظهر هذه الروايات المتعددة، حجم الكارثة التي حلت بالبرتغاليين في معركة وادي المخازن، والتي لم تكن مجرد هزيمة عسكرية، بل كانت نقطة تحول تاريخية أثرت على مصير البرتغال كدولة وإمبراطورية.

بعد المعركة، دخلت البرتغال في مرحلة من الضعف السياسي والعسكري، انتهت بتشكيل الاتحاد الإيبيري عام 1581، وهو اتحاد سياسي مع إسبانيا استمر لحوالي ستين عاما (1580–1640م). هذا الاتحاد، الذي كان في جوهره تعبيرا عن الهيمنة الإسبانية على البرتغال، أدى إلى تعميق الخلافات بين الشعبين وزيادة الشرخ القائم بينهما. وقد وضعت الحملة العسكرية التي قادها الدون سيباستيان حدا لأي طموحات برتغالية خارجية في المستقبل، مما أثر بشكل كبير على مكانة البرتغال كقوة استعمارية (De Oliveira Marques, 1972, p. 322؛ Fausto, 1999, p. 40).

في عام 1581م، نصب فيليب الثاني ملك إسبانيا نفسه ملكا على البرتغال تحت اسم "**فيليب الأول**"، وقبل مغادرته إلى مدريد عام 1583م، عين ابن أخته، ألبرت النمساوي، نائبا له في لشبونة. كما أنشأ فيليب "**كورتيس تومار**" (Cortes de Tomar)، وهي هيئة استشارية للشؤون البرتغالية، في محاولة لإدارة شؤون البلاد بشكل غير مباشر. وعلى الرغم من خضوع البرتغال لقانون الاتحاد الإيبيري، إلا أنها حافظت على استقلاليتها في قوانينها وعملتها وحكومتها، مما يعكس محاولة فيليب للحفاظ على مظاهر السيادة البرتغالية رغم الهيمنة الإسبانية (بيرتيي، 1991، ص 69–70).

أما المصادر الأوروبية الأخرى، فقد جاء معظمها في شكل تقارير ورسائل تم نشرها في "**المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب**" مثل رسالة الطبيب اليهودي، والتي احتوت على إشارات ومعلومات هامة تتعلق بالأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في المغرب على عهد السعديين. ويلاحظ على هذه المصادر تباين لافت في الأرقام التي أوردتها؛ حيث يذكر المؤرخ والجغرافي الجنوي هيرونيمو فرانشي كونيسلاجيو (Hieronymo Franchi Coneslaggio) مقتل ثلاثة آلاف مغربي إضافة إلى عدد كبير من المسيحيين (De Castries, 1905, p. 567). وقدم القس الفرنسي بيير فيكتور بالما كايي (Pierre Victor Palma Cayet) رواية تعكس تعصبه الديني، حيث أقر بمقتل عشرة آلاف مسيحي، لكنه زعم سقوط عشرين ألفا من المغاربة في محاولة واضحة للتغطية على فداحة الخسائر المسيحية وتخفيف وقع الهزيمة النكراء التي لحقت بالجيش البرتغالي (De Castries, 1905, p. 675). وفي السياق نفسه، تجلت محاولات تبرير الهزيمة في مصادر أوروبية أخرى؛ إذ تكشف وثيقة إسبانية مؤرخة سنة 1578م عن مسعى واضح وممنهج لطمس حجم الكارثة التي مني بها الجيش البرتغالي في معركة وادي المخازن. وذلك من خلال تناقضات رقمية واضحة وخطاب تبريري مفصل. فقد زعمت الوثيقة أن الجيش البرتغالي كان يضم أربعة وعشرين ألف مقاتل (بما فيهم ثلاثة آلاف فارس وألفي مرتزق وتسعمائة إيطالي وثلاثة آلاف ألماني وثلاثة آلاف إسباني وأربعمائة وخمسين نبيلا)، لكنها أشارت في الوقت ذاته إلى أن ثمانية عشر ألفا فقط كانوا جاهزين للقتال، مما يثير تساؤلات حول دقة هذه الأرقام. علاوة على ذلك، قدمت الوثيقة رواية مفككة تتعارض مع المنطق العسكري. فقد ادعت أن عشرين ألف مقاتل– أي 83% من إجمالي الجيش المقدر

بأربعة وعشرين ألف جندي ألف جندي – قد أسروا مما يوحي باستمرارية الجيش البرتغالي رغم الهزيمة، بينما أشارت في الوقت نفسه إلى سقوط "**قتلى كثر**". هذا التناقض في الأرقام يشير إلى محاولة متعمدة للتقليل من حجم الخسائر البشرية الحقيقية، التي لا تتماشى مع وصف "**الكارثة**" الوارد في الوثيقة ذاتها (De La Veronne, 1961, pp. 475–476).

تتبنى الوثيقة خطابا تبريريا واضحا يهدف إلى تحميل الهزيمة عوامل خارجية، مركزة على "التفوق العددي المغربي" (مائة وعشرون ألفا مقابل أربعة وعشرين ألفا) و"التفوق التقني" (أربعة آلاف مدفع)، لتحويل الفشل من هزيمة تكتيكية إلى قدر محتوم. وتعزز هذا التوجه بالإشارة إلى "**انعدام رغبة الجنود في القتال**" و"**حالة التعاسة السائدة**"، مما يحول الهزيمة العسكرية إلى إخفاق معنوي، مع تعتيم متعمد على أخطاء القيادة البرتغالية الاستراتيجية. وفي الوقت ذاته، توجه الوثيقة اتهاما ضمنيا للملك سبستيان بـ "**إهماله للتحذيرات**"، لتحول الفشل إلى خطأ فردي، مبرئة المؤسسة العسكرية من المسؤولية.

وفي سياق متصل، تسعى الوثيقة للتخفيف من وطأة الهزيمة عبر خطاب طبقي بارز، حيث تسلط الضوء على مصير أربعمائة وخمسين نبيلا وعملية افتدائهم، بينما تتجاهل مصير آلاف الجنود العاديين، وكأن الهزيمة تقاس بفقدان النخب لا الأرواح. ويكمل هذا التحول وصف المعركة بـ "**كارثة القصر الكبير**"، وهو تعبير يحول الحدث من هزيمة عسكرية إلى مأساة إنسانية، بهدف استثارة التعاطف بدلا من تحليل الأسباب.

وعلى صعيد آخر، يكشف البعد السياسي للوثيقة عن تناقض داخلي لافت، فبالرغم من كونها إسبانية، تقدم رواية تخدم المصالح البرتغالية بصراحة، مما يشير إلى تواطؤ سياسي بين الحليفين. يتجلى هذا التواطؤ في الوصف المقتضب لسقوط الملك البرتغالي "**قتل الملك وآخرون كثر**" مقابل الإسهاب في تفاصيل افتداء النبلاء، معيدة إنتاج التسلسل الهرمي الاجتماعي حتى في سرد الهزيمة. ويزيد من وضوح هذا التوجه الغياب المتعمد لتفاصيل المعركة التكتيكية، كمسرح الأحداث وطريقة الاشتباك، لتحويل الحدث إلى حكاية أخلاقية عن "الغرور الملكي" بدلا من تحليل عسكري موضوعي.

وهكذا، تشكل الوثيقة نموذجا كلاسيكيا لكتابة التاريخ كأداة سياسية، حيث تتحول الأرقام من وسيلة توثيق إلى أداة تضليل. فالدقة الوهمية في تعداد مكونات الجيش، كأعداد الإيطاليين والألمان، تتناقض مع الغموض المتعمد في تعداد الخسائر، مما ينتج رواية هجينة تجمع بين "الواقعية الزائفة" و"الغموض التبريري". تتكامل كل عناصر الوثيقة – من التناقضات الرقمية إلى الانزياحات السردية – لتصنع حقيقة بديلة تتمثل في هزيمة مبررة بظروف استثنائية، لا فشلا استراتيجيا يستدعي المحاسبة. وبذلك، تصبح الكتابة التاريخية هنا إعادة تشكيل للماضي وفق مصالح الحاضر، وليست مجرد تسجيل له.

وقدمت إفادة معاصرة لأحد الإنجليز أرقاما متناقضة بشكل كبير، حيث بالغت في تقدير خسائر المغاربة مشيرة إلى سقوط ما بين أربعين إلى خمسين ألف قتيل مغربي. وفي المقابل، قللت من حجم الخسائر المسيحية، حيث حصرتها في ثلاثة آلاف ألماني وسبعمائة إيطالي وألفين من الإسبان. مرجعا انكسار البرتغاليين إلى ضخامة الجيش المغربي (التازي، 1988، ج8، ص 107) في محاولة واضحة لتبرير الهزيمة.

وبالعودة إلى رسالة الطبيب اليهودي، فإنها تكشف عن آليات دقيقة ومعقدة في انتقال السلطة إلى أحمد المنصور بعد وفاة أخيه عبد الملك، حيث تتحول إلى دراسة حالة عميقة في فن بناء الشرعية السياسية وإدارتها. فقد حرص السلطان الجديد على ترسيخ حكمه من خلال سلسلة من الإجراءات المدروسة، بدءا بتنظيم مراسم دفن مهيبة لأخيه الراحل، مصحوبة بمواكب رسمية تضم النخب الدينية والعسكرية، في محاولة لربط شرعيته الجديدة بالموروث الرمزي للسلالة السعدية، مرورا بإعادة توزيع المناصب الإدارية والعسكرية الرئيسية لصالح الموالين له، ووصولا إلى خطوة ذكية تمثلت في التنازل عن توزيع غنائم المعركة كوسيلة لضمان ولاء القبائل والقوى المؤثرة في الجيش والدولة (De Castries, 1918, pp. 320–321). لم تكن هذه الإجراءات المتعددة الأبعاد مجرد خطوات شكلية، بل كشفت عن فهم عميق لطبيعة موازين القوى وتعقيدات المجتمع المغربي في تلك الفترة، مما ساهم في ترسيخ شرعية الحكم الجديد وحفظ استقرار الدولة.

وما عزز هذه الاستراتيجية هو التوازن الدقيق بين الشرعية الدينية والاعتبارات المادية، حيث وظف المنصور الرمزية الإسلامية في المراسم الجنائزية بينما اعتمد على اقتصاد الغنائم لتعزيز نفوذه. فتحول توزيع الأسرى البرتغاليين وأموال الغنائم إلى أداة سياسية ذكية، إذ أصبحت موارد الحرب أداة لكسب الولاءات وبناء التحالفات، بالإضافة إلى اعتماده الخطاب الديني والرمزية التاريخية كأدوات فعالة لتعزيز الولاء، مستغلا مكانة السعديين كمدافعين عن الإسلام في مواجهة التهديدات الخارجية. وهكذا، لم تكتف الوثيقة بتوثيق انتقال السلطة فحسب، بل كشفت عن البنية التحتية غير المرئية للحكم السعدي التي تجمع بين الإدارة الرمزية للمقدس وتدبير الشؤون الدنيوية، مما يقدم نموذجا مميزا لفهم التفاعل بين الديني والسياسي في تشكيل أنظمة الحكم بالمغرب في القرن السادس عشر، حيث تتداخل الخطابات الروحية مع الحسابات العملية، لتصنع نسيجا متينا من الشرعية يستند إلى إرضاء النخب رمزيا وماديا، ويحافظ في الوقت نفسه على تماسك الدولة في ظل تحديات المرحلة.

ومن خلال المقارنة النقدية بين رسالة الطبيب اليهودي وسائر المصادر التاريخية المغربية والأوروبية، يتضح أن الرسالة تتسم بمستوى لافت من الموثوقية التاريخية. فمعطياتها الجوهرية تتقاطع مع ما أورده الفشتالي والإفراني والناصري في توصيف التشكيلة القبلية للجيش واستخدام المدفعية وآليات انتقال السلطة، غير أنها

تنفرد بتفاصيل ميدانية يتعذر بلوغها عبر تلك المصادر، كالوصف الدقيق لتدهور صحة عبد الملك وفرضية التسمم، والآليات السرية لإخفاء وفاته، وبنية اتخاذ القرار داخل القيادة. وفي مقابل الروايات الأوروبية التي تكشف عن توجهات تبريرية واضحة، تقدم الرسالة شهادة داخلية أكثر رصانة وأقل خضوعا للإكراهات الإيديولوجية، مما يمنحها قيمة استثنائية في بناء المعرفة التاريخية بمغرب القرن السادس عشر.

الخاتمة:

نافلة القول، تمثل هذه الرسالة نموذجا استثنائيا للكتابة التاريخية التي تتجاوز السرد الحدثي لتغوص في تشابكات الحقبة السعدية عبر منظور متعدد الأبعاد. فمن خلال تتبع مسار الجيش السعدي عبر التضاريس المغربية المتنوعة، تقدم رؤية متكاملة تجمع بين التحليل الاستراتيجي الكلي للصراعات الإقليمية والأنثروبولوجيا التاريخية للحياة اليومية في معسكر الجيش. هذا النهج المنهجي الفريد يعيد تعريف الحدث العسكري ليس كمجرد مواجهة عابرة، بل كظاهرة ثقافية – سياسية تُكشف من خلال التفاعلات الدقيقة، كتدهور صحة السلطان عبد الملك وتأثيره على ديناميات القيادة، مما يسلط الضوء على الآليات الخفية لإنتاج السلطة عبر توظيف الرمزية في الطقوس الجنائزية واقتصاد الغنائم كأدوات لترسيخ الشرعية السياسية.

تتعمق الرسالة في كشف التفاعل بين البنى المحلية والدولية، حيث تظهر الغنائم البرتغالية – من أسلحة وأسرى – كعناصر فاعلة في شبكة التبادل التجاري والثقافي التي ربطت المغرب بأوروبا. هذا التحليل يفضي إلى فهم أعمق لدور التنوع المجتمعي (العرب، البربر، اليهود) في تشكيل آليات الحكم السعدي، وكيفية تحول الغنائم الحربية إلى رأس مال سياسي لضمان الولاءات القبلية والجيش والدولة. عبر هذا المنظور، تتجاوز الرسالة دورها التوثيقي لتصير أداة تحليلية تساهم في دراسة تشكل الدولة في مطلع العصر الحديث، من خلال الكشف عن التوازنات المعقدة بين المركزية السلطانية واللامركزية القبلية، وموقع المغرب الجيوسياسي كجسر بين إفريقيا والمجال المتوسطي في خضم التنافس العثماني–الأوربي.

تقدم هذه الرؤية التفكيكية–التركيبية إطارا منهجيا لقراءة التاريخ المغربي ليس كسرد خطي، بل كنسيج من التفاعلات يعيد تعريف المفاهيم التقليدية للسيادة والهوية. فمن خلال الربط بين الثقافة المادية (اقتصاد الغنائم) والمتخيَّل الجماعي (صورة السلطان البطل)، تضيء الوثيقة على الآليات التي شكلت الهوية السياسية المغربية في سياق التغيرات الدولية المبكرة، حيث تحولت ساحات المعارك إلى فضاءات لتبادل التأثيرات الحضارية. هكذا تصبح الوثيقة مرآة عاكسة لتعقيدات حقبة تاريخية، تقدم مفاتيح لفهم التشكيلات الاجتماعية والسياسية التي أرست أسس المغرب الحديث عند تقاطع الطرق الثقافية والجيوسياسية.

قائمة المصادر والمراجع:

- **المصادر:**

1. الإفراني، محمد الصغير. (1998). نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي (عبد اللطيف الشاذلي، محقق). الدار البيضاء.
2. دي صالدانيا، أنطونيو. (2011). أخبار أحمد المنصور سلطان المغرب (إبراهيم بوطالب، عثمان المنصوري، ولطفي بوشنتوف، مترجمون ومحققون). الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر.
3. دي هنين، خورخي .(1997) .وصف الممالك المغربية (1603–1613) (عبد الواحد أكمير، مترجم). منشورات معهد الدراسات الإفريقية.
4. الفاسي،محمد العربي.(2008).مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن(محمد حمزة الكتاني،محقق).دارابن حزم.
5. الفشتالي، عبد العزيز .(1972) .مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا (عبد الكريم كريم، محقق). مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة.
6. المكناسي، أحمد بن القاضي .(1971) .درة الحجال في أسماء الرجال (محمد الأحمدي أبو النور،محقق).دار التراث.
7. المكناسي، أحمد بن القاضي .(1986) .المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور (المجلد 1) (محمد رزوق، محقق). مكتبة المعارف للنشر والتوزيع.
8. مؤلف مجهول .(1994) .تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية (عبد الرحيم بنحادة، محقق). عيون المقالات.
9. الناصري، أحمد بن خالد .(1997) .الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (المجلد 5) (جعفر الناصري ومحمد الناصري، محققان). دار الكتاب.

- **المراجع:**

1. بنحادة، عبد الرحيم .(1998) .المغرب والباب العالي: من منتصف القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر .منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات.
2. بيرتيي، بيير .(1991) .معركة وادي المخازن (محمد بن عبود وآخرون، مترجمون). النجاح الجديدة.
3. التازي، عبد الهادي .(1988) .التاريخ الدبلوماسي للمغرب (المجلد 8). مطبعة فضالة.
4. شحاتة، حسن إبراهيم .(1979) .وقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب، 986 هـ – 1578 م: قراءة تاريخية عبر علاقات المغرب الدولية بالقرن السادس عشر ميلادي .دار الثقافة.
5. قدوري، عبد المجيد .(2000) .المغرب وأوربا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز) .المركز الثقافي العربي.
6. نكروف، يونس .(1987) .معركة وادي المخازن بين الملوك الثلاثة (وفاء موسى وليشو وحسن حيدر، مترجمون). منشورات عويدات؛ سوشبريس.

- **المقالات**

1. أعراب، سعيد. (1978). موقعة وادي المخازن واندحار الصليبية بالمغرب. مجلة دعوة الحق، 19(8).
2. أميلي، حسن. (1997). الوجه العسكري لمعركة وادي المخازن من خلال الوثائق .مجلة المليحة، (1).
3. البدراوي، زكرياء. (2020). قراءة في تطور مفهوم الوثيقة التاريخية من ما قبل الوضعانية إلى التاريخ الجديدة. دورية كان التاريخية، 13(50).

4. بنعبد الله، عبد العزيز. (1978). انتصار المغرب في وادي المخازن أنقذه من حرب صليبية عارمة. مجلة دعوة الحق، 19(8).
5. بوشرب، أحمد. (1983). معركة وادي المخازن من خلال كتاب حملة الملك دون سبستيان على إفريقيا لمؤلف برتغالي مجهول .مجلة المناهل، (28).
6. زريوح، زين العابدين. (2019). تداعيات الغزو الإيبيري للمغرب ما بين القرنين 15-16م. مجلة دراسات في علوم الإنسان والمجتمع، 2(4).
7. زريوح، زين العابدين. (2020). ذاكرة وادي المخازن 1578م بين المصادر المحلية والأجنبية .مجلة رؤى تاريخية للأبحاث والدراسات المتوسطية، 1(1).
8. لقبايبي، توفيق محمد. (2019). النهر في الاستراتيجية العسكرية السعدية: وادي المخازن أنموذجا .مجلة ضفاف، (3)، 53.

List of sources and references:

- **Sources:**

1. Anonymous. (1978). Jornada del-rei Dom Sebastião à África – Crónica de Dom Henrique. Imprensa Nacional-Casa da Moeda.
2. Anonymous. (1987). Crónica do Xarife Mulei Mahamet e d'El-Rei D. Sebastião, 1573–1578. Europress.

- **References:**

1. Braudel, F. (1966). La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II (Vol. 2). Armand Colin.
2. De Castries, H. (1905). Les sources inédites de l'histoire du Maroc, Première série. Dynastie saadienne. Archives et bibliothèques de France (Vol. 1).
3. De Castries, H. (1918). Les sources inédites de l'histoire du Maroc, Première série. Dynastie saadienne. Archives et bibliothèques d'Angleterre (Vol. 1).
4. De La Veronne, C. (1961). Les sources inédites de l'histoire du Maroc, 1ère série, Dynastie Saadienne, Archives et bibliothèques d'Espagne, Tome III (1560–21 août 1578). Paul Geuthner.
5. De Mendonça, J. (1904). Jornada de África (Vol. 1). Escriptorio.
6. De Oliveira Marques, A. H. (1972). History of Portugal. Columbia University Press.
7. Fausto, B. (1999). A concise history of Brazil (A. Brakel, Trans.). Cambridge University Press.

- **References :**

1. Amili, H. (1997). The military aspect of the Battle of Wadi al-Makhazin through documents. Al-Maliha Journal, (1), 79-80.
2. Anonymous. (1987). Chronicle of the Sharif Mulay Muhammad and King D. Sebastião, 1573-1578. Europress.
3. Anonymous. (1978). Journey of King Dom Sebastião to Africa - Chronicle of Dom Henrique. Imprensa Nacional-Casa da Moeda.
4. Anonymous. (1994). History of the Sa'adian Takmadarti state (A. Benhada, Ed.). Uyun al-Maqalat.
5. Al-Badrawi, Z. (2020). A reading in the evolution of the concept of historical document from pre-positivism to new history. Kan Historical Periodical, 13(50).

6. Benhada, A. (1998). Morocco and the Sublime Porte : From the mid-sixteenth century to the end of the eighteenth century. Publications of the Temimi Foundation for Scientific Research and Information.
7. Bertier, P. (1991). The Battle of Wadi al-Makhazin (M. Ben Abboud et al., Trans.). Al-Najah Al-Jadida.
8. Bousharb, A. (1983). The Battle of Wadi al-Makhazin through the book of King Dom Sebastian's campaign to Africa by an anonymous Portuguese author. Al-Manahil Journal, (28), 120-128.
9. Braudel, F. (1966). The Mediterranean and the Mediterranean world in the age of Philip II (Vol. 2). Armand Colin.
10. De Castries, H. (1905). Unpublished sources of the history of Morocco, First series. Sa'adian dynasty. Archives and libraries of France (Vol. 1).
11. De Castries, H. (1918). Unpublished sources of the history of Morocco, First series. Sa'adian dynasty. Archives and libraries of England (Vol. 1).
12. De Henin, J. (1997). Description of the Moroccan kingdoms (1603-1613) (A. Akmir, Trans.). Publications of the Institute of African Studies.
13. De La Veronne, C. (1961). Unpublished sources of the history of Morocco, 1st series Sa'adian dynasty, Archives and libraries of Spain (Vol. 3). Paul Geuthner.
14. De Mendonça, J. (1904). Journey to Africa (Vol. 1). Escriptorio.
15. De Oliveira Marques, A. H. (1972). History of Portugal. Columbia University Press.
16. De Saldanha, A. (2011). News of Ahmad al-Mansur, Sultan of Morocco (I. Butalib, O. Al-Mansuri, & L. Bushantouf, Trans. & Eds.). Moroccan Association for Authorship, Translation and Publishing.
17. Al-Fachtali, A. (1972). Manahil al-Safa on the glorious deeds of our noble masters (A. Karim, Ed.). Publications of the Ministry of Endowments and Islamic Affairs and Culture.
18. Fausto, B. (1999). A concise history of Brazil (A. Brakel, Trans.). Cambridge University Press.
19. Al-Ifrani, M. (1998). Nuzhat al-Hadi on the news of the kings of the eleventh century (A. Al-Shadhili, Ed.). Casablanca.
20. Laghbaibi, T. (2019). The river in the Sa'adian military strategy : Wadi al-Makhazin as a model. Difaf Journal, (3), 53.
21. Al-Miknasi, A. (1971). Durrat al-Hijal on the names of men (M. Al-Ahmadi Abu al-Nur, Ed.). Dar al-Turath.
22. Al-Miknasi, A. (1986). Al-Muntaqa al-Maqsur on the glorious deeds of Caliph al-Mansur (Vol. 1) (M. Razuq, Ed.). Maktabat al-Ma'arif.
23. Al-Nasiri, A. (1997). Al-Istiqsa on the news of the states of Far Maghreb (Vol. 5) (J. Al-Nasiri & M. Al-Nasiri, Eds.). Dar al-Kitab.
24. Nicroff, Y. (1987). The Battle of Wadi al-Makhazin between the three kings (W. Moussa Walisho & H. Haider, Trans.). Awaydat Publications ; Sochepress.
25. Qaddouri, A. (2000). Morocco and Europe between the fifteenth and eighteenth centuries (The question of transcendence). Arab Cultural Center.
26. Shahata, H. (1979). The Battle of Wadi al-Makhazin in the history of Morocco, 986 AH - 1578 AD : A historical reading through Morocco's international relations in the sixteenth century. Dar al-Thaqafa.
27. Al-Tazi, A. (1988). The diplomatic history of Morocco (Vol. 8). Fadala Press.
28. Zaryouh, Z. (2020). The memory of Wadi al-Makhazin 1578 AD between local and foreign sources. Ru'a Tarikhiya Journal for Mediterranean Research and Studies, 1(1), 157-158.